باب الكتب الجديدة

فلسفة للمستقبل

نشر سلرز وآخرين ، نيويورك ١٩٤٩

"Philosophy For The Future", ed. by R.W. Sellars & Others; New York Macmillan, 1949.

نشرنا فى العدد الثانى من المجلد السابع من هذه المجلة بحثا بعنوان « الأزمة الراهنة فى علم النفس الاجتماعى » أوضحنا فيه كيف أن جوهر المشكلة التى تعترض سبيل الدراسات النفسية فى الوقت الحاضر وتعوق تقدمها ، هو فى عدم وجود النظرية الشاملة ، أو بعبارة أخرى هو فى عدم وجود المفاهيم الصالحة لأن تنظم فيها تلك الوقائع النفسية التى لا حصر لها مما تم الكشف عنه فى البحوث الحديثة . وعندنا أن البحث فى هذه المفاهيم ومحاولة إيجادها هو المهمة الكبرى التى تقع على عاتق الباحثين النفسيين مسئولية إنجازها . وأن الشعور بثقل هذه المهمة والحاحها هو الخطوة الأولى فى سبيل المساهمة الأصلية فى تقدم الدراسات النفسية والاجتماعية .

والواقع أن هذه المشكلة كما تبدو لنا فى ميدان تخصصنا إن هى إلا مظهر جزئى لأزمة عامة تنتاب فروع البحث العلمى جميعاً . وهذا هو ما توحى به بحوث هذا الكتاب الذى نقدمه الآن . فالقارئ فيه يشعر بأن العلم يشبه اليوم نهراً قد انتهى إلى سهل صخرى ليس له فيه مجرى فإذا بمياهه تنتشر فى اتجاهات متعددة ضحلة ، مما يفقدها الكثير من إمكانياتها . ولا مخرج من هذا الموقف العصيب ومن هذه البعثرة التى لا طائل تحتها إلا بتعميق مجرى النهر ليواصل انحداره إلى مصبه الطبيعى . هذا هو بالضبط موقف العلم فى الوقت الحاضر . والكتاب الذى نحن بصدده يقدم عدة بحوث لعدة باحثين فى شتى فروع المعرفة يصور كل منها هذه المشكلة كما هى حادثة فى الفرع الخاص به ويقدم المفاهيم الرئيسية التى تعين على الخروج من هذا الموقف .

على أننا سوف نقتصر هنا على تلخيص بعض ما ورد فيه من بحوث فى ميدان تخصص هذه المجلة .

* * *

وأول هذه البحوث بحث عقده جدسون هيريك C.J. Herrick بعنوان « نظرة بيولوجية للمستويات التكاملية » ، قدم فيه فكرة التكامل وكيف ينبغى أن تفهم فهما ارتقائياً . فقال إن لبعض عوامل التكامل العضوية ما يناظرها فى العالم غير العضوى مثل آليات التكييف الخاصة بتوزيع الجهد الميكانيكى ، وآليات تنظيم جريان السوائل وتغيرات الحرارة ، وقابلية الأغشية للإنفاذ .

وهناك عوامل تكاملية عضوية ليس لها ما يناظرها فى العالم غير العضوى . فبازدياد حجم الحيوان وتعقده يتحتم وجود موصلات للتوصيل السريع بين المراكز المختلفة . ويقوم الدم بأداء هذه المهمة الى حدما . ولكن الجهاز العصبى يعتبر أهم جهاز للقيام بها فى المملكة الحيوانية كلها — اذا استثنينا المستويات البدائية[1] . ويمضى ارتقاء الجهاز العصبى فى اتجاهين : أحدهما تحليلى والآخر تركيبى . ويتجلى الاتجاه التحليلى فى تمايز الوظائف الحسية المختلفة (من سمع وبصر . . . الخ) والوظائف الحركية المختلفة . ويتجلى الاتجاه التركيبى فى تآزر هذه الوظائف جميعاً وتكاملها[2] . وتزداد أهمية السيطرة المركزية فى الجهاز العصبى كلما ارتفعنا فى مستويات التطور . وذلك لازدياد تعقد مشكلات السلوك . وتبعاً لذلك تزداد أهمية الدور الذى يقوم به اللحاء ، ويصحب ذلك ازدياد حجمه ، هذا مع العلم بأنه العضو الرئيسى المختص بعملية الاكتساب . وتقدم لنا الدراسات الفيلوجينية (الخاصة بتطور النوع) الأمثلة المتعددة التى تشهد بصدق هذا التطور . ونحن نكتفى هنا بمثال واحد . فشهادة الحفريات تدل على أن تطور الزواحف البدائية قد سلك طريقين ، أدى أحدهما الى الطيور ، وأدى الثانى إلى الثدييات . وفى الطيور نلاحظ أن الجزء الجذعى من الدماغ متضخم بينما نجد اللحاء هزيلا جداً . وعلى العكس من ذلك فى الثدييات ، فجذع النصفين الكرويين يتضاءل بشكل واضح بينما يتضخم اللحاء وتتغاير أجزاؤه .

---

(١) « الأسس النفسية للتكامل الاجتماعى » — الدكتور يوسف مراد — مجلة علم النفس ، عدد ٣ مجلد ٣ .

(2) "L'Eveil de L'Intelligence", par Dr. Y. Mourad; Alcan; Paris, 1939.

وهذا الفارق فى التكوين العصبى هو أحد الأسس الهامة فى فهم أوجه الاختلاف الرئيسية بين سلوك الطيور وسلوك الثدييات . فالطيور بوجه عام تعتمد على أنماط السلوك الوراثية الجامدة ، والطائر الفرد ليس شديد القابلية للتكيف كما أن قدرته على الاكتساب أضعف بكثير من قدرة الثدييات العليا . فى حين أن أهم ما يميز الثدييات ازدياد قدرة الفرد على التكيف والتعلم ، وازدياد نسبة السلوك الذكى لديها لا سيما فى المستويات العليا منها .

ومن هنا يتضح أن مفهوم التقدم والارتقاء كما ينبغى أن يستعمل فى دراسات الحياة ، يجب أن يعنى به : اتساع نطاق المجالات التى تصلح فيها عملية التكيف ، وتنوع هذه العملية . وهذا المعنى للارتقاء يمكن استخدامه فى حالة الفرد وفى حالة النوع جميعاً . ومن ثم فسوف نجدنا دائماً بصدد مستويات متتالية من التكامل الذى يزداد تنوعاً وصلاحية efficiency وكما يصدق هذا المعنى فى فهم ارتقاء الفرد والنوع ، كذلك يصدق فى فهم ارتقاء الجماعة . فالتغيرات الارتقائية فى تتضمن دائماً ظهور التغاير المتمركز فى بعض المراكز ، بحيث يكون لكل مركز القدرة على الفعل المستقل . إلا أن هذا الاستقلال المحلى يظل — فى الحالات السوية — تحت سيطرة الكل . وإلا ظهر التضارب والصراع بين الأجزاء ، وكانت النتيجة إضعاف صلاحية الكل ، وربما الموت كما فى السرطان ، وربما الانقسام كما فى انقسام بعض الديدان ، أو انقسام مجتمع إنسانى واحد إلى عدة فئات متعارضة متنابذة .

* * *

كذلك قدم شنيرلا T.G. Schneirla بحثاً يوضح فيه عملية الارتقاء والمفاهيم التى يمكن أن تنتظم مظاهرها المختلفة ، تحت عنوان « المستويات فى القدرات النفسية للحيوان » . وشرح فى هذا البحث مفهوم « المستويات » levels وكيف أنه من أفضل التصورات لفهم عملية الارتقاء . فقال ان اصطلاح « المستويات » وسيلة تصورية لا بأس بها لوضع نظرية تنتظم مختلف أنماط التكيف مع ظروف الحياة التى تواجه مختلف الكائنات . ولكن يجب الحيطة عند استخدامها وذلك بالتنبه الى بضع حقائق هامة :

(١) منها أن الخصائص الفريدة التى تظهر فى مستوى جديد من مستويات التنظيم يجب ألا تفسر بأنها ترجع إلى نوع جديد من الطاقة أو إلى خصائص

حيوية جديدة[١]. ولكن باعتبارها خصائص وظيفية تبزغ من نمط جديد للتنظيم يختلف فى بعض وجوهه عن الأنماط الأدنى منه والأعلى منه .

(٢) ومنها كذلك أن الدراسة المقارنة فى ميداننا لا تعنى أننا نفترض رد علم النفس إلى مجموعة من المصطلحات البيولوجية . كما أن إصلاح هذا الخطأ لا يكون بتجاهل البيولوجيا تجاهلا تاماً[٢] .

(٣) ومنها كذلك أن « البنايات » التى نجدها فى المستويات المنخفضة يجب ألا نتوقع وجودها (كما هى) كأجزاء فى البنايات الموجودة فى مستويات أعلى . مثال ذلك أننا نكون سطحيين جداً إذا اعتبرنا « الإنسان الغريزى » كأى حيوان أدنى منه مرتبة . لأن ذلك يتضمن القول بأن استئصال الطبقات العليا من الدماغ يجعلنا نجد تحتها ما يوازى الحيوان تماماً . كذلك لا يمكن الزعم بأن اندماج جماعة صغرى فى المجتمع يشبه اندماج الفرد فى جماعة صغرى .

ويقدم لنا شيرلا بعد ذلك نظرات خصبة فى ارتقاء عملية التكامل الاجتماعى من تجمعات الحشرات حتى الجماعات الإنسانية ، تكشف عن الثوابت والمتغيرات فى هذه العملية . ويمكن اعتبار هذه النظرات بمثابة نماذج تحتذى فى الدراسة العلمية للارتقاء على ضوء مفهوم المستويات . وأهم ما فيها كيفية إبراز الجانب المستمر فى جميع مستويات الحياة الاجتماعية ، دون الإقلال من شأن الجوانب الجديدة فى كل مستوى .

* * *

ويقدم مكجيل V.J. McGill مقالا بعنوان « معالجة سيكولوجية للشخصية » يبرز فيها أهمية العامل التاريخى فى تحديد نمطها . ويقول إن كثيرين من العلماء عرفوا هذه الأهمية فأصروا على إبرازها فى بحوثهم ، ومن هؤلاء بافلوف Pavlov وجنات Gnatt وبركيز R. Yerkes ولدل Liddell وماسرمان Masserman . فقد عرف هؤلاء جميعاً — أثناء دراستهم التجريبية لسلوك الحيوان — أهمية الوقوف على سلوكه قبل الجلسات المعملية وفيما بينها . كذلك يقرر هب Hebb على أساس

(١) « معنى التكامل الاجتماعى عند برجسون » — مصطفى سويف — مجلة علم النفس ، عدد ٢ مجلد ٥ .

(٢) « مبادىء علم النفس العام » — الدكتور يوسف مراد — دار المعارف القاهرة ١٩٤٨ — ص ١٢ .

الدراسات التى أجريت فى معامل بركيز أن الخبرة الماضية للشمبانزية جوهرية لتأويل سلوكها الراهن . فإذا تجاهلنا وقائع تاريخ الحياة فإننا لن نستطيع تشخيص الانفعالات ولا فهم الدوافع . فالتفرقة بين الخجل والعصبية والخوف ضرب من المحال إذا نحن لم نعرف عن ماضى الحيوان شيئاً[١] .

ومع ذلك فإن الاتجاه الرائج الآن فى دراسات الشخصية — رغم أن أهمية العامل التاريخى فى دراستها تبدو أوضح بكثير من أهمية فى دراسة سلوك الحيوان — هو الاتجاه المضاد للتاريخية antihistoricism . فكورت لفين K. Lewin وهو من الأسماء المبرزة فى هذا الميدان يصر على تأكيد أهمية البيئة المباشرة للسلوك ، ويكاد يستبعد أثر البيئة الماضية تماماً . وهو يعلل ذلك بقوله : لما كان الماضى لا يوجد فى اللحظة الحاضرة ، فإنه لا يمكن أن تكون له آثاره فى الحاضر . ولذلك فإننا فى تمثيلنا لمجال الحياة يلزمنا أن نحسب حساب ما هو حاضر فحسب . والواقع أن هذا القول من لفين تبدو عليه سمة الصدق . ومن الممكن — نظرياً — تفسير سلوك الشخصية تفسيراً كاملا بالرجوع إلى الوقائع الحاضرة فى مجال السلوك فحسب ، على شريطة أن تكون جميع هذه الوقائع معروفة لنا بما فى ذلك « الآثار » القائمة فى الجهاز العصبى . ولكن هذا الشرط غير متوفر اليوم ولا ينتظر أن يتوفر فى القريب العاجل . فالواقع أننا نقرر قيام آثار الجهاز العصبى استنتاجاً من معرفتنا بخبرات الفرد الماضية . ومن ثم فإن التوجيهات المنهجية التى يقدمها لنا لفين فى هذا الصدد لا تستطيع أن تسعفنا اليوم ؛ ونحن فى هذا المستوى الذى تقف عنده دراساتنا النفسية فى الوقت الحاضر . وأقصى ما يمكن أن يقال فيها إنها مثل أعلى بعيد التحقيق . ويستشهد لفين بدراسات جاليليو Galileo فى الحركة وكيف أنه أغفل العامل التاريخى عندما أراد أن يستخلص قوانينها . الا أننا هنا بصدد مستويين مختلفين للظواهر ، ومن ثم فلا يمكن المقارنة بينهما بهذا اليسر[٢] . والمهم أنه فى حالة الكائنات الحية حتى ولو كانت البروتوزوا فإن للسلوك الماضى شأناً لا يمكن إغفاله . على أننا لا نستطيع أن نقول إن الجشطلتيين ينكرون أثر

(1) Hebb, D.O. "Emotion in Man and Animal : An Analysis of The Intuitive Process of Recognition", Psychological Rev., vol. 53, No. 2; 1946.

(٢) على أن علماء الطبيعة أنفسهم يبدأ يدركون أخيراً أهمية العامل التاريخى فى الظواهر الطبيعية . راجع فى ذلك كتاب :

"The Freedom of Necessity", by J.D. Bernal; K.P., London, 1949.

الاكتساب الماضى . إلا أنهم يقللون من شأنه ويحاولون أن يتخلصوا منه . ومن بين الطرق المؤدية إلى هذه الغاية القول بأن التاريخ « كما مارسه الطفل يدخل كعنصر أساسى ضمن مكونات البيئة » . حيث يعنون بالبيئة « الموقف الراهن » للطفل . وهذا وصف دقيق لسلوك الطفل من الناحية الظاهرية phenomenological . ولكن الوصف الظاهرى — مع التسليم بقيمته — ليس تفسيراً علمياً . وقد أوضح كهلر W. Kölder هذه الحقيقة فى كتابه : "The Place of Value in a World of Facts" ولكن الجشطلتيين عامة ينسون ذلك عند التطبيق .

إن عالم النفس بحاجة إلى معرفة كيف تتدخل الأحداث الماضية فى تحديد سلوك الفرد ، ومن ثم فلا بد له من الرجوع إلى الحقائق التاريخية ، لأنها الأرضية التى يتشكل الحاضر على أساسها . ومن الأمور التى لها دلالتها أن هذا الاستبعاد المنهجى للعوامل التكوينية أو التاريخية لم يأت بفائدة ، ولم نصل عن طريقه إلى قوانين لضبط سلوك الطفل . ومن بين الأسباب التى تساهم فى تعقيد الموقف أيضاً استخدام مصطلحات مجردة مثل « موجه » vector « والقيمة الإلزامية » valence « والقوة » force ، معزولة عن كل ما نعرفه عن الجهاز العضلى العصبى والنضوج ومربوطة ربطاً واهياً إلى حاجات الطفل وقدراته النامية . نعم إن اللعبة الموضوعة أمام الطفل تعمل كقوة جاذبة ، ولكن هذا غير صحيح فى كل الأحوال . فكيف نفسر الحالة السلبية دون أن نلجأ إلى وقائع تاريخ الحياة ؟ أو كيف نفسر أن هذا الطفل تجذبه اللعبة والآخر ينفر منها بعيداً . بل وحتى عندما ينجذب الطفلان نحو اللعبة ، فمن المحتمل أن تكون دلالة انجذاب أحدهما مختلفة عن دلالة انجذاب الآخر . فالأول قد جذبه أنه يملك لعبة مماثلة ، بينما انجذاب الثانى محاكياً الأول[1] .

* * *

وأخيراً نعرض لمقال مارمر J. Marmor فى « التحليل النفسى » . وهو مقال يغلب عليه الدفاع عن نظرية فرويد مع توجيه المهتمين بها إلى أوجه النقص فيها وكيفية التغلب عليها . ويقول مارمر إن الدعاوى الرئيسية للتحليل النفسى ثلاثة :

(١) « الأزمة الراهنة فى علم النفس الاجتماعى » — مصطفى سويف — مجلة علم النفس ، عدد ٢ ، مجلد ٧ .

١ – القول بالنشاط النفسى اللاشعورى ، ويتبعه مفاهيم : الصراع والكبت والمقاومة .

٢ – القول بالحتمية النفسية ، ويتبعه القول بصدق الترابط الحر ودلالة الأحلام .

٣ – القول بالتحويل transference ، ويتبعه القول بالحتمية التاريخية للسلوك .

وتلك كلها مفاهيم دينامية ، ولا يوجد بينها وبين المادية العلمية الحديثة أى خلاف . فإذا نظرنا فى البناء النظرى الذى يقيمه فرويد فوق هذا الأساس العلمى الذى تدعمه الملاحظات المتعددة وتجارب لوريا Luria (الذى استعان بالتوءم الصناعى لإثبات صحة افتراض الحتمية النفسية) فعلينا أن نعترف بأن هذا البناء مزيج من التفكير المادى الميكانيكى والغائى entelechistic . ويبدو ذلك بوجه خاص فى قوله بالغرائز .

وفرويد يشبه هوبز Hobbes إلى حد ما . فهو يعتقد أن النزعات الفطرية فى الإنسان هى فى جوهرها أنانية حيوانية مضادة للمجتمع ، وما مهمة المجتمع (والتربية) إلا أن تكف تلصع هذه النزعات وإلا باء المجتمع بالدمار . ولذلك كان فرويد متشائماً فيما يتعلق بإمكان قيام اتحاد تعاونى إذ أن هذا الأمل مضاد للطبيعة البشرية التى لا يمكن أن تصبح شيئاً آخر غير جوهرها الفردى الأنانى . والواقع أن تصوير فرويد لأفراد المجتمع على هذا النحو هو كتصوير أجزاء الآلة تتماس وتؤثر فى بعضها البعض على السطح ، أما الجوهر فيظل ثابتاً كما هو ليظل بقبحه الفطرى فى أوقات الحرب والتوتر . تلك الفكرة عن طبيعة فطرية جوهرية لا تتغير فكرة غائية entelechistic فى صميمها . وقد كتب بارتلت F.H. Bartlett بحثاً فى فرويد نشره عام ١٩٣٨ ذكر فيه ببراعة أوجه الشبه بين « الهو » الفرويدى وبين « الفرد المنعزل » أو « الإنسان الطبيعى » لدى هوبز وروسو . وأوضح الصلة القائمة بين هذه المفاهيم وبين العلاقات الإنتاجية القائمة فى المجتمع الحديث . إلا أنه اتهم فرويد بالمثالية ، وهذا فى رأينا خطأ ، فرويد كان مادياً ، لكنه كان مادياً ميكانيكياً .

والحجج الرئيسية التى يقدمها الفرويديون للتدليل على صدق قولهم بأن العدوان فطرى فى الطبيعة البشرية ، هى :

١ ــ انتشاره الواضح على نطاق عالمى .

٢ ــ الحيوان عدوانى بالفطرة .

٣ ــ صغار الأطفال تبدو أنانيتهم وتزوعهم إلى التدمير بكل وضوح .

٤ ــ سيطرة العدوان بين القبائل البدائية .

وقد رد ماسلو A. H. Maslow على هذه الحجج جميعاً . وإليك ردوده :

١ ــ ليست جميع الحيوانات عدوانية . ومن الحقائق التى لا يمكن إنكارها أننا كلما صعدنا فى سلم التطور قرباً من الإنسان وجدنا العدوان يقل شيئاً فشيئاً ، كما أنه يبدو شيئاً فشيئاً كرد فعل معقول ومفهوم « لموقف كامل » . والشمبانزى وهو أقرب الحيوانات إلى الإنسان يبدو أكثر تعاوناً وأقل عدواناً من الإنسان العادى[1] .

٢ ــ تدل دراسات الأطفال على أنهم يبدون من الكرم والتعاون مثل ما يبدون من البغضاء والتدمير ! فإذا هدد الطفل فى حاجته إلى الأمن والطمأنينة والحب وتقدير ذاته فإنه يبدى الأنانية والبغضاء والعدوان .

٣ ــ تدل دراسات الحضارات المقارنة على وجود اختلافات هائلة فى درجة العدوان . وهناك عدد غير قليل من القبائل البدائية لا تكاد تكشف عن شىء من سمات العدوان فى سلوكها[2] .

وينتقل مارمر من مناقشة هذه القضية وتصحيحها ، إلى مناقشة عدة قضايا أخرى أهمها قضية الإقلال من شأن البيئة الاجتماعية فى تشكيل الشخصية ومصدر خطأ الفرويدية فى هذا الصدد .

على أننا نكتفى بهذا القدر ، منوهين بأهمية هذا الكتاب لما يثيره من مشاكل على جانب كبير من الخطورة فى تقرير مستقبل البحث العلمى .

مصطفى سويف

---

(١) تبرز دراسات يركيز R. Yerkes هذه الحقيقة الهامة بكل وضوح .

(٢) يمكن الرجوع فى ذلك إلى دراسات الباحثة الأنثروبولوجية مارجريت ميد M. Mead فى قبائل الزونى والكواكيوتل .